المثل والقيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي

للدكتور عفيف عبد الرحمن
(جامعة اليرموك)

لقد فرضت الصحراء على العرب طباعا وأخلاقا خاصة تناسبهم ، والزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولا ، ثم صارت لهم على مر السنين جبلة وفطرة ، وصارت لهم عنوانا بين الناس . وصقلتهم الحروب التي اكتوت الجزيرة بنارها ردحا من الزمن ، حتى قال شاعرهم مصورا حياتهم خير صورة :

يُغار علينا واترين فيُشتَفَى بنا ان أُصبنا أو نغير على وِترِ
قَسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضي الا ونحن على شطرِ (١)

ونستطيع أن نزعم بأن تلك الحياة الجاهلية الضنكة ، والحروب التي اشتعلت ، قد صهرتا ذلك المجتمع وتقاليده ، فنشأت وتكونت مجموعة من القيم والمثل تعارف عليها المجتمع وآمن بها واحترمها والتزم بها . ولكن ذلك لا يعني أن عادات أخرى وتقاليد كانت تصبغ الحياة ، فتسمها بالظلم والفوضى والسفه لم تكن موجودة . والذي سنوليه الاهتمام في هذه المقولة هو اللون الأول من اعراف الجاهلية وتقاليدها ، اي الوجه المشرق من تلك الحياة ، لأننا نظلم تلك الفترة من تاريخ امتنا ان نحن اغمضنا اعيننا عن هذا الجانب ، وقلنا ان العرب لم تكن لهم قيم قط ، وانهم كانوا امة تتخبط في الظلام ؛ والا فبم نفسر تلك الآيات الكريمة التي تجادلهم وتحاورهم ؟ وبم نفسر دخولهم جميعا في دين الله افواجا في زمن لم يتعد احد عشر عاما ، ثم حملوه الى العالم أجمع ؟

---

(١) حماسة ابي تمام ـ شرح المرزوقي ٨٢٦/٢ .

ويبدو ان ذلك المجتمع ، بالرغم من تنافر قبائله وتطاحنها ، وعدم تلمسها واحساسها بشعور الانتماء الى أصل واحد ، اتفق على امور كثيرة وتعارف عليها . وكانوا يجدون من أوقات الفراغ ، ما يجعلهم يحسون بالطمأنينة النسبية مما يجعلهم يشغلون تلك الاسواق ، ويعمرونها بالبيع والشراء والاستماع الى الخطب البليغة ، والاشعار الرائقة الرائعة ، وتبادل الخبرات ، والزواج بل حتى تبادل الأسرى .

لقد تعارفوا على اسواق تشكل في مجموعها سلسلة متصلة تبدأ من اقاصي أطراف الجزيرة في عمان وتنتهي بعكاظ حيث يذهبون الى مكة للحج الى بيت الله الحرام . وكانت أوقات افتتاح تلك الاسواق تبدأ مع الانتهاء من السوق المجاور . ومن أهم تلك الاسواق : دومة الجندل (أول يوم من ربيع الاول) ، وسوق هَجَر (في شهر ربيع الآخر) ، وسوق أدم وقرى الشحر ، وسوق عدن أبين ، وسوق صنعاء ، وسوق عكاظ ؛ ويتوجهون بعد ذلك الى مكة ، فيقفون بعرفة ، ويقضون مناسك الحج ، ويرجعون الى أوطانهم (٢) . وكانت الاوقات المخصصة لتلك الاسواق تتفق وهدنة تعارفوا عليها ، تلك هي الاشهر الحرم (٣) التي لا قتال فيها ؛ ذلك ما آمنوا به جميعا ، يتفرغون فيها للاتصال ببعضهم في المواسم والاسواق ، ويحجون بعد ذلك الى بيت الله الحرام . وتعارفوا أيضا على قوانين تنظم علاقاتهم في أثناء التقائهم في تلك الاسواق يلتزمون بها ، من اهمها ان لا سلاح يحمل في السوق ، بل تودع الاسلحة عند رجل له منزلته ومكانته قبل الدخول الى السوق . وفي هذه الاسواق يتم تبادل الاسرى ، كما يتم حل المظالم التي تعجز القبيلة عن حلها حيث يُبتّ فيها حكام هذه الاسواق الذين يحظون بمكانة مرموقة بين القبائل .

---

(٢) سبائك الذهب (١١٩ ــ ١٢٠) .

(٣) الاشهر الحرم هي : ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب .

ولا يفوتنا أن نشيد هنا بدور هذه الاسواق في بروز طبقة من الحكماء والخطباء والحكام ما زالت وصاياهم وحكمهم تُتناقل بين افواه الناس الى يومنا هذا ، ودورها ايضا في خلق لغة ادبية تعارف عليها الجميع في تلك الاسواق ، وهي اللغة الفصحى ، لغة القرآن الكريم ، التي تشكلت من لغات القبائل .

وهكذا وُلّدت تلك الظروف من جدب الارض التي يغلب عليها الطابع الصحراوي ، وحياة التحرك للحرب او للسلم ، والاحتكاك فيما بين القبائل في السلم والحرب ، قيما ومثلا تعارف الجميع عليها ، وعملوا بها ، ثم اصبحت مُثلا يفخرون بها ، ويفاخرون بها غيرهم .

وتقتصر هذه المقالة على أهم هذه القيم والمثل .

واول تلك الفضائل والقيم التي حرصوا عليها أشد الحرص ، فمدحوا التمسك بها ، وذموا وهجوا التخلي عنها ، **الكـــرم** ؛ والكرم في اللغة يعني ما استفاده الانسان من خلق كريم ، او طبع عليه (٤) ، وهو ايضا شرف في الشيء في نفسه ، او شرف في خلـــق الاخلاق (٥) ؛ ويُعرِّف ابن الاثير الكريم بأنه الجامع لانواع الخـــير والشرف والفضائل (٦) . فالكرم جماع شرف النسب والسخاء ، واتيان الفعل النبيل . وسنقصر حديثنا على السخاء،لان الصفتين الاخريين ليس مكانهما في هذه المقالة ؛ واتيان الفعل النبيل يكون اعم واشمل من السخاء ، وشرف النسب مما يفاخر به كل عربي

وكانت العرب تمتدح الكريم السخي عندما يشتد القحط ، ويقلّ الزاد ، وتضيق اليد ، يقول المسيب بن علس مادحا القعقاع بن معبد بن زرارة ،

---

(٤) جمهرة اللغة مـــادة (كرم) .

(٥) معجم مقاييس اللغة ـــ ابن فارس ١٧١/٥ .

(٦) النهاية في غريب الحديث ـــ ابن الاثير ١٦٦/٤ .

الذي كانوا يدعونه بتيار الفرات الذي يسخو ويجود في وقت الشدة والبرد ، حيث يحلّ الجميع ببيته ، وهو بهـذا العمل اجود من الخليج ، ومن هنا جاءت تسميته بتيـار الفرات :

واذا تُهيجُ الريـحُ من صُرّادِها ... ثلجـًا يُنيـخُ النّيـبَ بالجُعجاعِ

احللتَ بيتَك بالجميع ، وبعضُهم ... متفـرق ليحـلّ بـالأوزاعِ

ولأنتَ أجـودُ من خليج مفعَـمٍ ... متراكـمٍ الآذي ذي دُفّـاع (٧)

ويمتدح عمرو بن شأس قوما يجودون في اوقات المحل فيقـول :

المطعمون اذا النجـومُ خَـوَتْ ... واحـاط بالمتوحّـد المحـلُ (٨)

ويكرر المعنى ذاته في موضع اخر فيقـول :

وإنْ يأتِنا ذو حاجة يُلفِ وسطنا ... مجالس ينفي فضلُ احلامها الجهلا

مصاليتُ أيسارٌ اذا هبّـت الصّبا ... نَعفٌ ونُفني عن عشيرتنا الثقلا (٩)

ويقول سلامة بن جندل التميمي في المعنى نفسه :

كنا اذا مـا اتانا صارخٌ فَـزِعٌ ... كان الصراخُ له قَرْعَ الظنابيبِ (١٠)

ويؤكد المعنى نفسه شاعر بني عامر بن الطفيل فيقـول :

اذا سَنة عَزّت وطـال طوالُها ... وأقحَطَ عنها القطر واصفرّ عودُها

وُجِدْنـا كِرامًا لا يُحَـوّل ضَيفُنا ... اذا جُفّ فوق المُنزلاتِ جليدُها (١١)

---

(٧) المفضلية رقم (١١) .

(٨) ديوانه (٤٢) .

(٩) ديوانـه (٤٨) .

(١٠) المفضليـة رقم (٢٢) .

(١١) ديوانـه (٤٦ ـ ٤٧) .

ويحدثنا شاعر آخر هو عمرو بن الأهتم قصة رجل ضلَّ طريقه ليلا ، فاستضافه ، ورحب به ، وقام الى بعير سمين من ابل القوم فنحره ، وظل يطعم الضيف حتى شبع ؛ ثم نام قرير العين مستدفئا من البرد الشديد ، وهو يخبرنا في نهاية القصة أن كل كريم يجب ان يتقي ذم الناس له بالقرى .

وإني كريم ذو عيال تُهِمُّني ... نوائبُ يغشى رُزؤُها وحقوقُ (١٢)

ومستنبحٍ بعد الهدوء دعوته ... وقد حان من نجم الشتاء خُفوقُ

يعالج عِرنينًا من الليل باردا ... تَلفُّ رياحٌ ثوبَه وبروقُ

تألَّقَ في عينٍ من المزن وادقٍ ... له هيدبٌ داني السحابِ دفوقُ

اضفتُ فلم افحش عليه ولم اقل ... لأحرِمَه : ان المكانَ مُضيقُ

فقلت له : اهلا وسهلا ومرحبا ... فهذا صَبوحٌ راهن وصديقُ

وقمنا الى البُرْكِ الهواجد فاتقت ... مقاحيد كُومٌ كالمجادلِ رُوقُ

الى ان يقول :

فبات له منها وللضيف موهنًا ... شواء سمين زاهق وغَبوقُ

وبات له دون الصَّبا وهي قُرَّةٌ ... لحاف ومصقول الكساء رقيقُ

وكل كريم يتقي الذم بالقرى ... وللخير بين الصالحين طريقُ

ويتذكر متمم بن نويره أخاه فيبكيه معددا خصاله :

فَعَينَيَّ هَلَّا تبكيان لمالك ... اذا أذْرتِ الريحُ الكنيفَ المرفَّعا

وللشَّرْب فابكي مالكا ولبُهمةٍ ... شديد نواحيه على من تشجَّعا

---

(١٢) المفضلية رقم (٢٣) .

وضيف اذا ارغـى طُروقًا بَعيرَه وعانٍ ثَـوَى في القِدِّ حتى تكمَّما

وارملـة تمشي بأشعـث مُحْفِلٍ كفرخ الحُبارَى رأسُه قد تضوَّعا (١٣)

ولا يرضى شاعر آخر بنحر الكسيرات المهزولات من الابل ، بل ان قومه ليغتبطون خيار الابل وكرائمهاعند حلـول الضيفان :

ويجلب ضِرسُ الضيف فينا اذا شتا سديف السنام تستريه اصابعه (١٤)

واستهجنت زوج الهذلول بن كعب العنبري ، وقد رأتـ زوجها يطحن للضيفان ، فقال قصيدة منها :

لعمـر ابيك الخير اني لخـادم لضيفي وانـي ان ركبـتُ لفارسُ

واني لأشري الحمد أبغي رُباحَه واترك قِرني وهو خزيانُ ناعسُ (١٥)

وكانت عادة العرب في الجدب اذا استعار احدهم قدرا أن يرد فيها شيئا من الطعام ، وقد عبّر عن ذلك ، بالاضافة الى ايقاد النار في الليل ليهتدي الحائر اليها ، شاعرهم عوف بن الأحوص فقـال :

ومستنبحٍ يخشى القَـواء ودونه من الليل بابـا ظلمة وستورُها

رفعتُ له ناري فلما اهتدى بهـا زجرتُ كلابـي أن يُهِرّ عَقورُهـا

فلا تسـاليني واسالي عن خليقتي اذا ردّ عافي القدر مَن يستعيرُها

وكانـوا قعودًا حولهـا يرقبونها وكانت فتـاةُ الحيّ ممـن يُنيرُها

ترى انَّ قِـدري لا تزال كأنهـا لذي الفروة المقـرور أُمٌّ يزورُها

مبرزة لا يجعـل الستر دونهـا اذا اخمد النيران لاح بشيرُها (١٦)

---

(١٣) المفضليـة (٦٧) .

(١٤) الشعر لجحدر بن خالد ــ شرح الحماسة للمرزوقي ٥١٦/٢ .

(١٥) المصدر السابق ٧٠٠/٢ .

(١٦) المفضلية رقـم (٣٦) .

ويعتبر العربي بذل المال قرى للضيف واغاثة للملهوف ، ودفع دية ، ونحو ذلك ، حقا لازبا لا مفر منه ، ويفخر ربيعة بن مقروم الضبي بقومه الذين يفعلون ذلك ، فيقول :

اليسوا الذين اذا ازمة الحت على الناس تنسي الحلوما
يهينون في الحق اموالهم اذا الزبات التحين المسيما (١٧)

ويفخر الحارث بن حلزة اليشكري بأن قومه يكرمون الضيف حينما يجدب المرعى ، ويشتد البرد ، فان لم يكن في إبلهم لبن عطفوا على القداح فضربوا بها للأضياف ، فنحروا لهم :

واذا اللقاح تروحت بعشية رتك النعام ، الى كنيف العرفج
الفيئنا للضيف خير عمارة ان لم يكن لبن فعطف المدمج (١٨)

وكثيرا ما يقترن السخاء والجود بحميد الفعال ، لان حب الخير يعين على البذل . والشواهد في الشعر الجاهلي اكثر من أن تحصى ؛ وثمة دليل آخر، وهو أن الحديث عن الجود والسخاء يأتي خلال الحديث عن الفخر ؛ وعناصر الفخر في العصر الجاهلي تكاد تكون محددة ومعروفة ، اللهم الا في بعض الحالات الشاذة ، كالفخر ببقر بطون الحبالي . فالجاهلي يفخر بحسبه ونسبه ، ويفخر بالشجاعة ، وبنجدة الملهوف ، وبالكرم ، واغاثة الملهوف ، وبحماية الجار ، وكل تلك القيم التي حرص عليها المجتمع الجاهلي وصقلتها تلك البيئة حتى اصبحت اعرافا وتقاليد التزموا بها .

---

(١٧) المفضلية رقم (٣٨) .

(١٨) المفضلية رقم (٦٢) .

ويعتبر الجاهلي بذل المال سترا ووقاية لعرضه حيث يقـول :

أَجعَـلُ المـال لعِرضي جُنَّـةً ان خير المال مـا ادى الذمم (١٩)

ولا تنقص قلة المال من قيمة الرجل الكريم الحسب والخصال ؛ يقول الطفيـل الغنوي :

اني وان قَـلَّ مالي لا يفارقني مثل النعامة في أوصالها طولُ (٢٠)

ومن هذه القيم حرصهم على المراة ، وقـد كان شديدا ، وتغنـوا بالحفاظ على الشرف والعرض ، ونشبت حروب كثـيرة بسبب محاولة اعتداء قوم على امراة من قبيلة اخرى ، بل بسبب اهانـة تلحق بامراة كما في بعض حروب الفجار . ولعل ذلك قد حملهم على أخذ نسائهم معهم في الحروب حتى لا تتخلف في الحي ، فيأتي قوم ويسبون النساء ، وذلك مما يجلب العار للقبلية . لذلك افتخر شعراؤهم بحماية النساء ، يقول سلامة بن جنـدل التميمي :

بانا منعنـا بالفُروقِ نساءَنـا ونحن قتلنا مَن اتانا بُملزِق (٢١)

ويقارن عمرو بن حوط الرياحي بين قومه واخرين في يوم طِخفة بقوله :

فمـا قوم كقومي حيـن يُخشَى على الخُـوَّد المُخَدَّرة الفِضـاحُ
أَذُبّ عـن الحفائـظ فـي مَعَدٍّ اذا مـا جَدَّ بالقوم النِطاحُ (٢٢)

وقوم ربيعة بن مقروم الضبي يمنعون حريمهم :

طوال الرمـاح غداة الصبـاح ذوو نجدة يمنعون الحريمـا (٢٣)

---

(١٩) المفضلية (٧٨) والشعر للمثقب العبدي .
(٢٠) ديوان الطفيـل الغنوي (٥٧) .
(٢١) ديوانـه (١٦) .
(٢٢) النقائض لابي عبيدة ٦٩/١ .
(٢٣) المفضلية رقـم (٣٨) .

ويفخر الطفيل الغنوي بانه يحافظ على حليلة جاره ولا يخونه :

ولا اخالـــف جاري في حليلته ولا ابن وِدِّيَ غالتني اذا غـــول (٢٤)

وكان من عوامل الثبات والنصر في النهاية في يوم ذي قار ان بعض القادة اشار — حينما رأى قوة الفرس — على القوم بالانسحاب الى الصحراء ، المعقل الطبيعي ، ولكن زعيما آخر مال الى الابل التي تحمل حريمهم فقطع وضنها ، وقال : ليدافع كل منكم عن حريمه • وثبت القوم وانتصروا فـي النهاية (٢٥) .

وقد شبهها بعضهم بالأُتْرُجَّة التي تفوح بالرائحـــة الطيبة :

يحملن أُتْرُجَّةً نَضْخُ العبـــير بها كأن تُطيابها في الأنف مشمومُ (٢٦)

وبالرغم من حرص العربي على صون شرف المرأة الا ان ذلك لم يمنع من أخذهـــم على حين غرة ، فتسبى النساء ؛ وكـــان السبي عارا يلحق بالقبيلة ، ويفخر بـــه المنتصرون ، ويعيرون خصومهم • يقول بشر بن ابي خازم الأسدي معرضا ببني عامر :

بني عامـــرٍ إنّا تركنـــا نساءكم من الشل والايجاف تُدمَى عجوبها

عضاربطنـــا مستبطنـــو البيض كالدمى مضرجـــة بالزعفران جيوبُهـــا

تبيـــت النساء المرضعات برهوة تفزَعُ من خوف الجنان قلوبُها (٢٧)

ويصور عوف بـــن عطية التميمـــي نساء حي فاجاهـــم وفرسان عشيرته ، فيقـــول :

---

(٢٤) ديوانـــه (٥٨) .

(٢٥) انظر قصة يوم ذي قار في تاريـــخ الطبري ، الجزء الثاني ، النقائض ٦٤٣/٢ .

(٢٦) المفضلية (١٢٠) لعلقمة بـــن عبدة .

(٢٧) المفضليـــة (٩٦) .

ولنعـم فتيـان الصباح لقيتـم واذا النساء حواسـر كالعنقـرِ

من بين واضعة الخمار واختهـا تسعى ومنطقها مكـان المئزرِ (٢٨)

تلك كانت منزلة المراة الحرة ، ولكن صنفا آخر مـن النساء لم يكنّ يحظين بهذه المنزلة ، واعني الاماء والقيان ، فقد كانت القينة وسيلة المتعة وقضاء الوقت ، وبخاصة في ليالي الشتاء وأيامه • يقول طرفة معبرا عـن ذلك :

وتقصير يوم الدَّجْن ــ والدجن معجب ــ

ببهكنة تحت الطراف المعمَّد (٢٩)

ويكرر المعنى نفسه عبد المسيح بن عسلة فيقـول :

وسمـاعُ مدجنـة تُعلِّلُنـا حتى نـؤوب تناوم العُجْـم (٣٠)

ويكرر بشر بن عمرو المعنى فيقول :

وتبيت داجنـة تجاوب مثلَهـا خـودًا منعمةً وتضـرب مُعتِبـا

في اخوة جمعوا نـدى وسماحة هُضْمٍ اذا أزم الشتاء تزَعَّبا (٣١)

وكان السبي وما يلحق من عار سببا مباشرا من اسباب وأد بعض العرب بناتهم ؛ ولم تكن هذه العادة السلبية غير الانسانية نادرة كما لم تكن عامة ، ولكنها وجدت • ومن الذين وادوا عددا مـن البنات بلفن تسعا في بعض الروايات قيس بن عاصم ، وقد حدث الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك . وجاء الاسلام ونزلـت في المـؤودة الآيتـان

---

(٢٨) المفضليـة (٩٤) .

(٢٩) معلقتـه .

(٣٠) المفضليـة (٧٢) .

(٣١) المفضليـة (٧١) .

الكريمتان : « واذا المؤودة سُئلت ، بأي ذنب قُتلت » (٣٢) . ومع كل هذه المنزلة للمراة لم يمنع ذلك من وجود بعض الشعراء الذين يفخرون ببقر بطون الحبالى ؛ فهذا عامر بن الطفيل يقول :

بقرنا الحبالى من شنوءة بعدما خبطن بفيفٍ الريح نَهْداً وخثعما (٣٣)

ومن القيم التي برزت في خضم تلك الحياة رفض الذل والهوان ؛ فكان العربي يسترخص الحياة في سبيل دفع المهانة والذل ، يحارب الخصم ويقاتله قتالا انتحاريا ، وهو يعلم تفوّق خصمه عليه ، لدفع الذل الذي يحاول أن يجعله يعيش فيه . يقول ربيعة بن مقروم الضبي :

ودار هوان أنفنا المقام بها فحللنا محلاً كريما (٣٤)

ويقول عنترة في المعنى نفسه :

لا تسقني ماء الحياة بذلّة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل (٣٥)

ويصرخ عمرو بن كلثوم قائلا :

اذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نُقرَّ الذل فينا (٣٦)

وفي يوم ذي قار يقول ابو كلبة :

ان الفوارس من عجل هم أنفوا
من ان يُخلّوا لكسرى عرصة الدار (٣٧)

---

(٣٢) الآيتان (٨ ، ٩) من صورة التكوير .
(٣٣) ديوانه (١١٨) .
(٣٤) المفضلية رقم (٣٨) .
(٣٥) ديوانه (١٣٥) .
(٣٦) معلقته .
(٣٧) تاريخ الطبري ٢١١/٢ .

وتعارفت العرب كلها على **قانون الجوار** ، وكانت القبيلة تجد في حماية الجار مصدر فخر لها ، وان في منعته منعة لها ، وان اي اذى يلحق به يلحق بها ، ولو كان هذا الجار من غير عصبيتها . وتغنّى الشعراء بذلك كثيرا ، يقول عبيد بن الأبرص :

نحمي حقيقتنا ونمنع جارنا ونلفّ بين ارامل الأيتام (٣٨)

ويقول حسان بن نشبة العدوي مادحا تيمًا لانها ابت ان تسلم جارها :

واني وإن لم أفدِ حيًّا سواهُمُ فداءٌ لتيم يوم كلب وحميرا

ابوا ان يبيحوا جارهم لعدوّهم وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا (٣٩)

ويفخر المثقب العبدي باكرام الجار ورعاية حقه فيقول :

أُكرِمُ الجارَ وأرعَى حقَّه ان عرفانَ الفتى الحقَّ كرم (٤٠)

ويقرن ذلك بعدم التعرض للناس في غيابهم ؛ وهو مماثل لما ورد في القرآن الكريم « ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه » (٤١)

فيقول :

لا تراني راتعًا في مجلس في لحوم الناس كالسبع الضرم

ويمدح عدي بن يزيد بن حمار بني شيبان بحمايتهم الجار ومساواته بابناء القبيلة حتى انه لينسى انه جار لهم ، فيقول :

ومن تكرّمهم في المحل انهمُ لا يعلم الجار فيهم انه الجارُ

حتى يكون عزيزًا من نفوسهمُ او ان يبينَ جميعا وهو مختارُ

---

(٣٨) ديوانه (١٢٣) .

(٣٩) شرح الحماسة للمرزوقي ٣٣٧/١ .

(٤٠) المفضلية (٧٧) وانظر شرح اختيارات المفضل (١٢٧١) .

(٤١) آية (١٢) من سورة الحجرات .

كأنه صَدَعٌ في راس شاهقة من دونه لعناق الطير اوكارُ (٤٢)

ولكن الجوار لم يكن محبوبا وايجابيا دائما ، فقد جاور البرج بن مسهر كلبا ايام حرب الفساد ؛ فلم يحمدهم وتحسر على ايام قومه الخوالي ، وتعهد بانهم لو رجعوا فلن يخاصموا ابناء جلدتهم حتى الممات لئلا يضطرون الى الخروج :

فنعم الحيّ كلب غير انّا راينا في جوارهمُ هَنات
ونعم الحي كلب غير انّا رُزينا من بنينَ ومن بنات
فان الغدر قد امسى واضحى مقيما بين خَبْتَ الى المسات
تركنا قومنا من حرب عام الا يا قوم للأمر الشتات
واخرجنا الايامى من حصون بها دار الاقامة والثبات
فان نرجع الى الجبلين يوما نصالح قومنا حتى الممات (٤٣)

ويفخر حُرَيث بن جابر بتعصبه لحليفه وفزعه لظلمه فيقول :

اذا ظُلِمَ المولى فزعتُ لظلمه فحرّك احشائي وهرّت كلابيا (٤٤)

وعير مساور بن هند قوما لنقضهم العهد ، وقطعهم الرحم فقال :

قتلوا ابن أختهم وجار بيوتهم من حينهم وسفاهة الالباب
غدرت جذيمة غير اني لم اكن ابدا لأولف غدرة اثواني
واذا فعلتم ذلكم لم تتركوا احدا يذب لكم عن الاحساب (٤٥)

---

(٤٢) شرح الحماسة للمرزوقي ٣٠١/١ — ٣٠٢ .
(٤٣) شرح الحماسة للمرزوقي ٣٥٩/١ — ٣٦٢ .
(٤٤) المصدر السابق ٣٧٦/١ .
(٤٥) المصدر السابق ٤٣١/١ — ٤٣٢ .

ويوصي العباس بن مرداس غيره بالحفاظ على الجار ، فيقول :

عليك بجار القوم عبد بن حُبْتَر فلا تُرْشُدَنْ الا وجارك راشدُ

فان غضبت فيها حبيبُ بن حبتر فخذ خطة يرضاك فيها الأباعدُ

اذا طالت النجوى بغير أولى القوى اضاعت واضعت خدَّ مَنْ هو واردُ

فحاربْ فان مولاك حاردُ نَصرُهُ ففي السيف مولى نُصرُهُ لا يحاردُ(٤٦)

ويعرِّض جحدر بن خالد بغير قومه الذين يُروَّع جارهم ويغدر به ، فيقول :

ونحن الذين لا يُروَّع جارنا وبعضهمُ للغدر صُمّ مسامعُه (٤٧)

ويعير ابو تمام خصمه بأن جاره سهل المنال كالصيد لمن يطلبه بينما جاره لا يطلب ، ولا يطمع فيه :

فجارك عند بيتك لحمُ ظبي وجاري عند بيتي لا يرام (٤٨)

وكأنما أصبحت حماية الجار والمحافظة عليه جبلة وقانونا يلتزمون به في الجاهلية ؛ يقول عوف بن عطية :

وامنع جاري من المجحفات والجار ممتنع حيث صار (٤٩)

ومن القيم التي فخروا بها صون الامانة ، وعدم التفريط بها مهما كانت الاسباب والنتائج ؛ يقول الشنفرى مفضلا الوحوش على القوم الذين تركهم :

---

(٤٦) شرح الحماسة للمرزوقي ٤٣٧/١ — ٤٣٨ .

(٤٧) المصدر نفسه ٥١٤/٢ .

(٤٨) المصدر نفسه ٥٨١/٢ .

(٤٩) المفضلية (١٢٤) .

هم الرهط لا مستودَعُ السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جَرَّ يُخذَل (٥٠)

ولعل صورة يوم ذي قار تشهد بالصورة المشرقة لتحمّل القبيلة مسؤولية صون الامانـــة ، ولو ادت النتيجة الى ملاقاة جيوش الفرس الجرارة . وقد اصبح هذا اليوم مدعاة لفخر شعراءبكر وتغنّيهم بذلك ، بل لفخر العرب جميعا ؛ فقد اقسمت بكر الا تفرط بتلك الدروع التي اودعها النعمان عندهم ، وان انجم السماء اقرب الى كسرى من تلك الدروع ، يقول الاعشى شاعرهم :

فما حلقـــة النعمان يـــوم طلبتها باقرب من نجم السماء تراقبه (٥١)

ويقسم في قصيدة اخرى بآلهة العرب وبغيرها على الحفاظ على تلك الأدرع مهما غـــلا الثمن :

حلفـــت بالملح وبالرمـــاد وبالعُزّ ى وبالـــلات تُسْلَمُ الحلقـــهْ
حتـــى يظـــل الهـــام منجـــدلا ويقرع النِّيـــل طُرَّةَ الدَّرَقـــهْ (٥٢)

ويخاطب راشد بن شهاب اليشكري قيس بن مسعود الشيباني بشأن تلك الأدرع مؤنبا فيقـــول :

وكنت زمانًا جـــارَ بيتٍ وصاحبًـــا
ولكـــنّ قيســـا في مسامعـــه صَمَمْ

اقيس بن مسعود بن قيس بن خالد
اموفٍ بادراعِ ابـــن طيبة أم تُـــذَمْ
بـــذمٍّ يُغَشّي المـــرء خزيا ورهطَهُ
لدى السَّرحة العَشّاء في ظلها الأدَمْ (٥٣)

---

(٥٠) لامية العـــرب .
(٥١) ديوانـــه .
(٥٢) ديوانه والاغاني (دار الثقافة) ٢٢٩/٢٣ .
(٥٣) المفضلية (٨٦) .

وكان من مظاهر الصلات السليمة في العصر الجاهلي **الاحلاف** ؛ فكانوا يغمسون أيديهم في أثناء عقد احلافهم في طيب أو دم ، ويقولون « الدم الدم ، والهدم الهدم ، لا يزيد العهد طلوع الشمس الا شُدّا ، وطول الليالي الا مُدّا ، مابُلّ البحر صوفه ، واقام رضوى في مكانه » . وربما اوقدوا النار عند تحالفهم ودعوا الله أن يحرم من ينقض عهد الحلف من منافعها . وربما دنوا من هذه النار حتى تكاد تحرقهم ، كما حدث لقبائل من مرة بن عوف الذين تحالفوا عند نار ، فدنوا وعشوا بها حتى محشتهم فسموا به « المحاش » (٥٤) .

ومهما يكن من دوافع هذه الأحلاف ونتائجها فيجب أن لا ننسى انها لعبت دورا كبيرا ايجابيا في تكوين القبائل ، وجعلت القبائل الضعيفة تنضم الى القوية الكبيرة لتحميها ، وتردّ العدوان عنها (٥٥) .

ولا يغيبن عن بالنا أحلاف كانت غايتها دفع الظلم والشر ، أو نشر الأمن في ربوع الجزيرة . وخير مثال لذلك حلف الفضول بين بطون قريش (٥٦) ؛ وسببه أن رؤساء بطون قريش اجتمعوا فاتفقوا الا يدعوا أحدا يظلم احدا الا نصروا المظلوم على الظالم ، وأخذوا له حقه . وانتشر التحالف بين القبائل بصورة أوسع قبيل الاسلام ، ولم تبق خارج هذه الأحلاف الا جمرات العرب (٥٧) ، ولعل انتشار المحالفات كان احساسا من القبيلة العربية بأنها بحاجة الى الانفتاح على غيرها من القبائل ، وربما كان ذلك ارهاصا ببدء **نهضة قوية** أفاد منها الاسلام في توحيد أمة استطاعت حمل رسالته الخالدة الى العالم .

---

(٥٤) الحيوان للجاحظ ٤٧١/٤ .

(٥٥) انظر معجم البكري ٥٣/١ وما بعدها .

(٥٦) المحبر ــ لابن حبيب (١٦٧) .

(٥٧) الحيوان ١٢٣/٥ ، المحبر (٢٣٤) .

وللحليف في المجتمع الجاهلي حقوق وعليه واجبات . ويفخر العربي بأن حليفه لا يضام :

إنّـــا لعمـــرك لا يضـــا م حليفنـــا ابـــدا لدينـــا (٥٨)

ولا يجوز فضّ الحلف أو الغدر بالحليف مـــا دام الحلف معقودا . وحرص المجتمع حينذاك على المحافظة علـــى قداسة الحلف واعتبر المساس به عارا يلحق بالقوم ؛ بل لقد شبهه النابغة بالفجـــور عندما قتلت عبس نضلة الأسدي ، وكان بين أسد وذبيان حلف واراد عيينه بن حصن الفزاري مساعدة بني عبس ، فقـــال محذرا :

اذا حاولتُ فـــي أُسَد فجـــورا فاني لست منـــك ولست منّـــي

همو درعى التي استلأمتُ فيها الى يوم النسار وهـــم مِجَنّي (٥٩)

ويفتخر الحـــادرة بذلك فيقـــول :

إنّا نعـــفّ فلا نريـــب حليفنـــا ونكفّ شُحَّ نفوسنا في المطمع (٦٠)

ومن القيـــم الخالدة التي رسخت معالمها في نفسية العربي الجاهلي **رفضه الضيم** ولـــو كان من اهله وذويه ، لان قبوله يتنافى مع قيم اخرى آمن بها المجتمع الجاهلي فرادى وقبائل . يقول الشنفرى :

ولولا اجتناب الذام لم يُلْفَ مشرب يعـــاش بـــه الا لـــدَيَّ ومأكـــلُ

ولكنَّ نَفْسًا مُـــرَّةً لا تقيـــم بي على الضيـــم الا ريثمـــا أتحولُ

---

(٥٨) ديوان عبيد بن الابرص (١٣٥) .

(٥٩) ديوانـــه (١٩٩) .

(٦٠) المفضلية رقـــم (٨) .

وهو يرفض أن يشعره أحد بأن له فضلا عليه ، ويؤثر عليه أن يستف تراب الأرض :

واستف ترب الأرض كي لا يرى له علي من الطول امرؤ متطول (٦١)

والجاهلي يرى الأرض واسعة يتنقل فيها الانسان اذا احس بأن اذى او ضيما سيناله . يقول الشنفرى في بداية لاميته التي اعلن فيها بتر علاقته بمجتمعه فلجأ الى الصحراء ووحوشها :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

لعمرك ما بالأرض ضيق على امرىء سرى راغبا او راهبا وهو يعقل (٦٢)

ويعبّر عنترة العبسي عن الروح نفسها حين يقول :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل (٦٣)

وما الحروب التي تأججت نارها في الجزيرة العربية الا صورة طبيعية لرفض العربي الذل والضيم ، فقد كانت القبائل تحتكم الى سيوفها ورماحها لتردّ الظلم والضيم .

ومن القيم والمثل الايجابية التي عرفها العصر الجاهلي ذلك اللون من الشعر الذي عرف **بالمنصفات** ، وحاول فيه الشعراء الفرسان انصاف خصومهم ، أو خصوم قبائلهم بالرغم من أنهم أعداء لهم . وقد عرفت الجزيرة هذا اللون منذ التقى الفرسان في ساحات الوغى . ويُعتَبر المهلهل بن ربيعة أول من انصف في شعره حين قال في يوم عنيزة :

كأنّا غُدوَةً وبني أبينا بجنب عنيزة رَكَبًا مدير (٦٤)

---

(٦١) لامية العرب .

(٦٢) لامية العرب .

(٦٣) ديوانه ص (١٣٥) .

(٦٤) الاصمعية رقم (٥٣) .

وبدهي أن يرتبط هـذا اللون من الشعر بالمعارك والأيام ، وأن يصدر على السنـة الشعراء والفرسان ، وهـم أولى العرب باحترام تقاليد الفروسية ، فهـم أبوا طعن أعدائهم من الخلف وهم مدبرون ، ولم يعتادوا الغدر ، ولم يقتلوا مقاتلا الا ندًّا في الشجاعة . وان فارسا هـذه تقاليده ليعز عليـه أن يرى خصمه الفارس الشجاع مجنـدلا أمام عينيه على الرغم من أنه هـو الذي صرعه ؛ يعز عليـه ذلك لسببين ، أولهما لانه فارس ويقدر الفارس الشجاع ؛ وثانيهما لانه يتخيل انه سيجندل في يوم من الأيام . وربما كان ذلك بسبب احساس الشاعر الجاهلي بمأساته : مأساة الانسان،وهي الفناء الأبدي ، والتلاشي الى عدم ؛ فكأنما يرثي حاله ونفسه ، وكأنما يبكي مصيره وحتمية ذلـك المصير .

لقد التقى قيس بن زهير العبسي وحمل بن بدر الفزاري ، فقتل قيس حملا ؛ وما أن رآه صريعا حتى هاجت به الذكريات ، وتذكر اشياء كثيرة منها صلات القربى ، وظلم القتيل ، فقال فيه :

تَعلَّمْ أن خـير النـاس حيًّـا ... علـى جفـر الهباءة مـا يريـمُ

ولـولا ظلمـهُ ما زلـت ابكي ... عليـه الدهر ما طلـع النجـومُ

ولكنّ الفتـى حمـل بـن بـدر ... بَغَى،والبَغْـي مرتعه وخيـمُ (٦٥)

واضطر القتّال الكلابي لقتال فارس لم يكن يرغب في ذلك النزال ؛ وتدور الدائرة على خصمه ، ويندم القتّال على مقتله ندما شديداً ، ويقول في قصيدة لـه :

ولمـا رأيتُ انني قـد قتلتـه ... ندمت عليـه أي ساعة مندمِ (٦٦)

---

(٦٥) الحماسة بشرح المرزوقي ٤٢٨/١ .

(٦٦) المصدر السابـق ٢٠١/١ .

وينتزع الفارس المقدام اعجاب خصمه ومنازله ؛ فقد رأى دريد بن الصمة ربيعة بن مكدم،فارس كنانة،وقد انكسر رمحه بعد أن صرع ثلاثة من أصحاب دريد الفرسان ؛ فقال دريد : أيها الفارس ان مثلك لا يقتل ، ولا ارى معك رمحا ، فدونك هذا الرمح . ورجع دريد يثبّط اصحابه عن ربيعة بن مكدم . فانصرف القوم ونجا ربيعة . وأنشد دريد معبرا عن اعجابه بذلك الفارس الخصم :

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله حامي الظعينة فارسا لم يُقتَلِ
اردى فوارس لم يكونوا نُهزَةً ثم استمر كأنه لم يُفعلِ
متهلل تبدو اسرّة وجهه مثل الحسام جُلتْه كف الصَّيقَلِ
يُزجي ظعينته ويسحب رمحه متوجها يمناه نحو المنزلِ
وترى الفوارس من مخافة رمحه مثل البغاث خشين وقع الأجدلِ
يا ليت شعري من ابوه وأمه ؟ يا صاح مُن يكُ مثله لم يُجهَلِ (٦٧)

ولكن الانصاف لم يقف عند حد انصاف فارس شاعر لفارس آخر قتله ، بل ان الشعراء انصفوا خصوم قبيلتهم . والأمثلة في الشعر الجاهلي كثيرة لا يتسع لها البحث ، وهي متنوعة بين قصائد ومقطوعات . لذا سنقصر الامر على بعض الامثلة .

غزا عباس بن مرداس السلمي وقومه بنو سليم مراداً ، ووقف عباس بن مرداس شاعرهم وفارسهم ينصف الاعداء ؛ وبلغ من محاولة الانصاف انه وزع أبيات القصيدة بين قومه وبين اعدائهم ، بل جعل بيت الشعر الواحد مناصفة بينهما ؛ وكان اذا خصص الشطر الأول من البيت لقومه ، جعل الشطر الثاني للأعداء ، وعكس الوضع في البيت التالي :

---

(٦٧) الاغاني (دار الكتب) ٦٦/١ .

فلم أرَ مثل الحيّ حيًّا مصبحـا ... ولا مثلنـا لمـا التقينـا فوارسا

أكـرّ وأحمـي للحقيقـة منهـم ... وأضـرب منا بالسيوف القوانسا

وأحصننا منهـم فمـا يبلغوننـا ... فوارس منـا يحبسون المحابسا

اذا ما شددنا شَدَّةً نصبوا لها ... صدور المذاكي والرماح المداعسا(٦٨)

وثمة شاعر آخر هو المفضل النُكريّ ، من شعراء عبد القيس ، صَوَّر لنا لقاء بين جيش قومه وجيش الاعداء ، فأنصفهم ؛ وها هو ينقل صورة متقابلة للفريقين فيقول :

همو صبروا فصَبْرُهمُ تليد ... على العزّاء آذ بلغ المضيقُ

وهم دفعوا المنية فاستقلّت ... دراكا بعد ما كادت تُحيقُ

تلاقينا بغيبة ذي طريف ... وبعضهمُ على بعض حنيقُ

فجاءوا عارضا بردا وجئنا ... كسيل العرض ضاق به الطريقُ

مشينا شَطْرَهم ومشوا الينا ... وقلنا : اليوم ما تُقضى الحقوقُ

وكم من سيّد منّا ومنهم ... بذي الطرفاء منطِقُه شُهيقُ

فاشبعنا السباع واشبعوها ... فراحت كلّها تئق يفوقُ

فأبكينا نساءهمُ وأبكوا ... نساء ما يسوغ لهن ريقُ (٦٩)

ويصل الانصاف ذروته حينما نرى الشاعر الجاهلي ينصف خصومه الذين هزموه وهزموا قومه ؛ وهذا يمثل ذروة الانصاف والاعتراف بالهزيمة وبتفوق الخصم ؛ فقد سجل لنا البراء بن قيس الكندي اعترافا بهزيمة قومه ، وانصف الاعداء بقوله :

---

(٦٨) الاصمعية رقم (٧٠) .

(٦٩) الاصمعية رقم (٦٩) .

قتلتنـــا تميـــم يومـــــا جديـــدا قتلُ عـــاد وذاك يـــوم الكـــلاب

يوم جئنا يسوقنا الحَيْنُ سَوقًـــا نحـــو قوم كانهـــم أُسْـــدُ غـــاب

وحشَدْنـــا الصميمُ نرجـــو نهابًا فلقينا البُـــوار دون النهاب (٧٠)

ولا يضعف من قيمة هذه الأبيات الا خشيتنا من أن تكون العصبية القبلية قـــد دَفَعَتْ بعض الرواة الـــى انتحالها .

ولبعض الجاهليين **موقف خاص مـن الخمر** ؛ فقد عددت المصادر القديمة لنا نفرا حَرَّمـــوا الخمر في الجاهلية على انفسهم ، ومنهـــم : عامر بن الظرب العدواني ، وقيس بن عاصم ، وصفوان بن أمية ، وعفيف بن معد يكرب ، والعباس بن مرداس السلمي ، وورقة بن نوفل ، والوليد بن المغيرة ، وزيد بن عمر بن نفيل ، وقس بن ساعدة ، وعبيد بن الأبرص ، وأبو ذر الغفاري ، وزهير بن ابي سلمى ، والنابغة الذبياني ، والنابغة الجعدي ، وحاتم الطائي ، وغيرهم (٧١) .

ولم يكن تحريم هؤلاء الخمـــر محض صدفة ، أو لان دينا او عقيدة امراهما بذلـــك ، ولكن ربما كان للتجربة سبب لذلك . يحدثنا صاحـــب الاغاني أن قيس بن عاصم المنقري سَكِر ذات ليلـــة قبل أن يُسلم ، فغمز عُكْنَةَ ابنته ، وفي رواية اخرى اخته ، فهربت منه . فلما صحا من الخمر سئل عما صنع الليلـــة الماضية ، فلم يدر بماذا يخبرهم . فاخبروه بما فعل ، فحرّم الخمر علـــى نفسه ، وقال في ذلـــك شعرا يوضح ما تفعله الخمر بصاحبها ، حيث تذهب بعقله ، وتفضح شاربيها ، وتحيل الرجل الحليـــم سفيهـــا :

---

(٧٠) الاغانـــي (دار الكتب) ٣٣٩/١٦ .

(٧١) المحبر ــ ابن حبيب (٢٣٧) ، امالي القالي ٢٠٤/١ ، نهاية الارب للنويري ٨٨/٤ .

وجدتُ الخمـــر جامحـــة وفيهـــا خصـــالٌ تفضح الرجـل الكريما

فـــلا واللـــه اشربُهـــا حياتـــي ولا ادعـــو لهـــا ابـــدا نديمـــا

ولا اعطـــي بها ثمنـــا حياتـــي ولا أشفـــي بها ابـــدا سقيمـــا

فان الخمـــر تفضـــح شاربيهـــا وتجشمُهـــم بهـــا امـــرا عظيمـــا

اذا دارت حميّاهـــا تَعلّـــت طوالعُ تُسْفِـــه الرجل الحليما (٧٢)

ويضيف الاغاني في رواية اخرى ان قيس بن عاصم هو اول عربي حرمها على نفسه في الجاهلية ؛ وهو القائل فيهـــا :

فوالله لا احسو يد الدهر خمـــرة ولا شَربَةً تزري بذي اللب والفخرِ

فكيف اذوق الخمر والخمر لم تزل بصاحبها حتى تَكشّع فـــي الغدر

وصارت به الأمثال تُضرَب بعدما يكون عميد القوم في السر والجهر

ثم يخاطب شارب الخمر محذرا وناصحا بتركها لان شاربها لا يدري ما يضـــره وما ينفعـــه :

فيا شارب الصهباء دعها لأهلها الغـــواة وسلـــم للجسيم مـــن الأمرِ

فانك لا تدري اذا مـــا شربتَها واكثرتَ منها ما تُريش وما تُبري (٧٣)

واذا كان قيس بن عاصم يطلب من شارب الصهباء ان يدعها لأهلها الغواة فانه يقر بأن فريقا آخر يشربها ، ولكنهم غواة . فهل كان العرب في الجاهلية ينعتون شارب الخمر بالغاوي ؟ ذلك مـــا لا تؤيده الشواهد الشعرية والأخبار التي بين ايدينا . ولكن تلـــك الروايات تحدثنا أن الخمر لم يكن يشربها الا الموسرون ، وقد تحدثوا عـــن مجالس الشرب والندامى .

---

(٧٢) الاغانـــي (دار الكتب) ٨٤/١٤ .

(٧٣) المصدر نفسه ٨٥/١٤ .

ويشاطر عبد المسيح بن عسلة قيس بن عاصم بأن الخمر تذهب بالعقل فيقول :

والخمر ليست من اخيك ولكن قد تخون بآمن الحلم
وتُبيّن الراي السفيه اذا جعلت رياح شمولها تنمي (٧٤)

والحكم والأمثال تمثل فلسفة الحياة الأولى ، ولها في تاريخ الفكر اهمية كبرى لا تدرك الا بالتعمق في دراسة نفسية الشعوب ، ودراسة التطور الفكري عند البشر . وحكم الجاهليين وأمثالهم ــ كما ذهب بعض الباحثين (٧٥) ــ تشيران الى ان الحياة جلاد وكرامة ، وان الحق فيها للقوة ، وأن زينة المرء شرفه . وبمعنى آخر فان الفلسفة الجاهلية فلسفة اخلاقية عملية ، بعيدة عن الميتافيزيقيات ؛ فلسفة مادية روحانية ، وروحانياتها مسحة اخلاقية كريمة .

وقد استوعب الحِكَمُ شكلا اللغة ، الشعر والنثر . يقول زهير في معلقته بعد ان تحدث عن عقد الصلح بين عبس وذبيان :

ومن لا يصانِعْ في امور كثيرة يُضَرَّسْ بانياب ويوطأْ بمنسمِ

ويقول :

رايت المنايا خبط عشواء من تُصِبْ تُمِتْه ومَن تخطىء يعمَّر فيهرمِ

ويقول :

ومن لا يُذُد عن حوضه بسلاحه يُهدَّم ومن لا يظلم الناس يُظلَمِ

وكان **الموت** لغزا رهيبا لا يقوى الجاهلي على حله ، فجعله واقفا حائرا وهو يرى احبته يتساقطون ، ولا يملك تفسيرا لذلك . فالموت

---

(٧٤) المفضلية (٧٢) .

(٧٥) الحكم والامثال ــ حنا فاخوري (١٧) .

سناء مطلق لا رجعة فيه ولا مفر منه . يرثي لبيد اخاه اربد وينظر الى الحياة ونهايتها فيقول :

فلا جزعٌ إن فُرِّق الدهر بيننا ... فكل امرىء يوما به الدهر فاجعُ

وما المرء الا كالشهاب وضوئه ... يحورُ رمادا بعد اذ هو ساطعُ

وما المال والاهلون الا ودائع ... ولا بد يوما أن تُرَدّ الودائعُ

وما الناس الا عاملان : فعامل ... يُتبِّر ما يبني وآخر رافعُ

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ... ومنهم شقيٌّ بالمعيشة قانعُ

فلا تبعدنْ ان المنية موعد ... علينا غدانٍ للطلوع وطالعُ (٧٦)

ويرى طرفة بن العبد الموت الوسيلة الوحيدة التي تساوي بين الناس فقيرهم وغنيهم فيقول :

ترى جثوتين من ترابٍ عليهما ... صفائح صُمٌّ من صفيحٍ منضَّدِ

ارى الموت يَعتام الكرام ويصطفي ... عقيلةَ مال الفاحش المتشدِّدِ (٧٧)

ويرى أن العيش كنز ولكنه ينقص كل ليلة ، وانه آت لا محالة . ولعل استعمال الشاعر لفظة « كنز » يشير الى اهمية الحياة بالنسبة للشاعر ، وللجاهلي بعامة ، وفي استعمالها ما يشرح ويفسر جزعه من الفناء ، كما أن تصويره بالحبل المرخي اشارة الى الحتمية التي لا انفكاك منها :

ارى العيش كنزاً ناقصا كل ليلة ... وما تُنقِص الأيام والدهرُ يُنفدِ (٧٨)

لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطِّوَل المرخى وثُنياه باليدِ

متي ما يشأ يوما يُقِدْه لحتفه ... ومَن يكُ في حبل المنيّة يَنقدِ

---

(٧٦) ديوانه (١٦٨ — ١٧١) .

(٧٧) ديوانه (٥٣) .

(٧٨) ديوانه (٥٣ — ٥٤) .

ويسخر امرؤ القيس من الناس ومن نفسه الذين يسيرون فلا يعرفون مصائرهم ، وانهم ضعاف ، ومع ذلك فانهم اجرأ من مجلخة الذئاب :

ارانـــا موضعيـــن لأمـــر غيـــب ونسحـــر بالطعام وبالشـــراب

عصافـــــير وذبّـــــان ودودٌ واجرأ مـــن مجلّخة الذئـــاب (٧٩)

ومن الحكـــم النثرية :

اكثر من الصديق فانـــك على العدو قادر (قالهـــا ابجر بن جابر العجلـــــي) (٨٠) .

والدال على الخير كفاعله (قالها اللجيج بن شنيف اليربوعي) (٨١) .

واذا عز اخوك فهن ، (قالها الهذيل بن هبيرة) (٨٢) .

ومن **القيم الجاهلية البارزة في ذلك العصر ذلك التناقض الظاهر بين ظاهرتين ، اولاهمـــا** نجد فيها الشاعر الجاهلي يحرّض قومه وفرسانهم على تقتيل الاعداء والفتـــك بهم ؛ وهذا ما ليس موضعه هـــذا البحث ، **وثانيتهما** : نجد فيها الشاعر الجاهلي **يدعو الى التسامح والسلم والصلح.** وهذه الظاهرة تبرز بوضوح حينما يكون الفريقان المتصارعان ينتميان الى قبيلة واحدة او الى بطـــن كبير من بطـــون عدنان او قحطان . وكأنـــي بالشاعر ، وهو رائد في قومه وزعيم موجه لسياسة القبيلة ، يحس احساسا عميقا بصلـــة الرحم والقربى ، ويحرص عليها من ان تنقطع اوصالها . فهذا قيس بن زهير العبسي يقتل حمل بن بدر الفزاري ومع ذلك فهو يصرخ حزينـــا باكيا :

---

(٧٩) ديوان امرىء القيس .
(٨٠) الوسيط في الامثال للواحدي (٥٦) .
(٨١) المصدر السابـــق (٤٩) .
(٨٢) المصدر السابـــق (٤١) .

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني

فان اكُ قد بردت بهم غليلي فلم اقطع بهم الا بناني (٨٣)

وسنان بن ابي حارثة يخاطب المثلم بن رياح بن ظالم المُرّي محذرا ومتوعدا :

فَمَنْ مُبلِغٌ عني المثلّم آية

وسهلا فقد نفّرتم الوحش اجمعا

هو آخوتي دنيا فلا تقربنّهم

ابا حشرج وافسح لجنبك مضجعا (٨٤)

ويجيبه المثلم بن رياح ويرد على تهديده :

فَمَنْ مُبْلِغ عني سنانا رسالة وشجنة أَنْ قُوما خُذا الحق او دعا

سأكفيك جنبي وضعه ووساده واغضب ان لم تعط بالحق اشجعا

تصيح الرديني فينا وفيهم صياح بنات الماء اصبحن جُوَّعا

لففنا البيوت بالبيوت فأصبحوا بني عمنا من يُرْمِنا يُرْمِنا معا (٨٥)

ويحاول الحصين بن الحمام المري اقناع بطن آخر من قبيلته حتى لا يكرهوه وقومه على ما لا يحبون :

فيا آخوينا من ابينا وأُمّنا ذروا مولَيْنا من قضاعة يذهبا

فان آنتُم لم تفعلوا لا ابالكم فلا تعلقونا ما كرهنا فنغضبا

ونحن بنو سهم بنِ مُرّة لم نجد لنا نسبا عنهم ولا متنسَّبا

---

(٨٣) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٠٣/١ .

(٨٤) معجم الشعراء للمرزباني (٣٨٦) .

(٨٥) شرح الحماسة للمرزوقي ٣٨٣/١ — ٣٨٤ .

متى ننتسب تلقوا ابانا اباكمُ ولن تجدونا للفواحش اقربا (٨٦)

ويتحسر غلاّق مروان على فرقة عبس وذبيان بسبب الرهان بين داحس والغبراء فيقول :

همُ قطعوا الأرحام بيني وبينهم وأجروا اليها واستحلّوا المحارما
فيا ليتهم كانوا لأخرى مكانها ولم تلدي شيئا من القوم فاطما
شأمتم بها حُيَّي بُغيض وغرَّبت اباك فأودى حيث والى الأعاجما
وكانت بنو ذبيان عزا واخوة فطرتم وطاروا يضربون الجماجما (٨٧)

ويصور خالد بن نضلة ما يلقى تارك قومه الى قوم آخرين وما سيلقى فيقول :

لعمري لرهط المرء خيرٌ بقيةً عليه وان عالوا به كل مركب
من الجانب الأقصى وان كان ذا غنى فكلٌ ما عُلِفْتَ من خبيث وطيّب (٨٨)

وتتسع دائرة الانتماء وتتضح عند شاعر من بني عبس فيميز بين فرعي العرب الكبيرين : عدنان وقحطان فيرى القرابة من جهة الحارث بن كعب لانهم من نزار ، لا من جهة جرم وراسب لأنهم من قضاعة من اليمن .

أرِقّ لأرحام أراها قريبة لحارِ بنِ كعب لا لجرم وراسبِ
وأنّا نرى اقدامنا في فعالهم وآنفنا بين اللحى والحواجب
واخلافنا إعطاءنا وإباءنا اذا ما أبينا لا ندرّ لعاصب (٨٩)

---

(٨٦) المفضلية (٩٠) .
(٨٧) شرح الحماسة للمرزوقي ٤٥٥/١ .
(٨٨) المصدر السابق ٣٥٨/١ — ٣٥٩ .
(٨٩) المصدر السابق ٣٢٨/١ — ٣٢٩ .

ويتضح هـذا الانتماء بدرجة كبيرة حتى أن قوما يقتلون شقيق الحارث بن وعلة الذهلي فيحار بين الأخذ بالثأر والعفو بسبب القرابة ، ويعبّر عن ذلك فيقول :

قومي هُمُ قتلوا أميمَ اخي فاذا رميتُ يصيبني سَهمي
فلئن عَفوتُ لأعفُوَنْ جَلَلا ولئن سطوت لأوهِنَنْ عَظمي (٩٠)

د. عفيف عبد الرحمن

---

(٩٠) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٠٤/١ .